

رأي عربي في لورانس

أنيس صايغ

الدراسات عن طوماس ادوارد لورنس تعدّ بالمئات ، قلما تحرّر أصحابها من العقدة التي لازمت الذهن الاوربي (والعربي الى حد ما) منذ ان اشتهر لورنس وذاع اسمه في الحرب العالمية الاولى : عقدة معرفة ما اذا كان لورنس صديقاً للعرب ام عيناً عليهم ، وجندياً مخلصاً لبلاده ام نائراً عليها .

انا لا اعترف فحسب باهمية هذين السؤالين لتفهم لورنس ، بل اني اعتبر اية دراسة عنه ناقصة ما لم تحط بها احاطة كاملة ، اذ هما من ابرز المسائل التي يجابهها الباحث في حياة ذلك الجندي - الاديب - الرحالة - الاثري - السياسي - الناقد ، الذي تحول في اشهر معدودة الى اسطورة ، له ما للاسطورة من جمالات وما لها من حماقات . انما ارى ان هذين السؤالين كانا فخياً وقع معظم الباحثين فيه . فقد اضطرتهم محاولة الاجابة عليهما الى ان يصنفوا لورنس ، وان يضعوا اسمه في قائمة ويجذفوه من قائمة . فوقعوا في خطأ ربطه بجماعة او بعقلية او مطلب او عاطفة او عقيدة او نية معينة دون اخرى ، وفي خطأ النظر اليه من جانب واحد مع اهمال الجوانب الاخرى من حياته المتشعبة (اهمالاً عفويّاً او مقصوداً) . ذلك ان لورنس كان شخصيات متعددة في شخص واحد . كان « لورنسات » مختلفة جمعها جسم وتاريخ واحد فحسب . كان متعدداً ومختلفاً (ان لم نقل متناقضاً) في آرائه وعواطفه واحاسيسه مثلما كان في هواياته وغرائبه . لونه صفاته هذه بالوان قوس قزح ، فيه الاحمر وفيه الاصفر وفيه الاخضر ؛ لكن كما انه لا لون من هذه الالوان هو قوس قزح ، فانه ايضاً لا صفة من صفات لورنس المعروفة عنه هي لورنس ، او هي حتى سبيل التعرف على لورنس . كل منها ، في الواقع ، مجرد جانب ، جانب واحد بسيط ، ليس اكثر من جزء من كل .

خطأ الباحثين في لورنس، إذاً، وهم يحاولون ان يصنفوه وينعتوه باللقاب ، انهم استمدوا من جانب من تلك الجوانب ، العديدة حتى التناقض احياناً ، دليلاً او حجة او شاهداً او مثالا على صفة ، يرونها او يزعمونها فيه ، ويعتبرونها هي الصفة الرئيسية وهي لورنس وهي حلّ لغز هذا الرجل - اللغز .

ولد لورنس في ١٨٨٨ ، وقام بدراسته الابتدائية والثانوية ثم الجامعية ، وبمطالعاته الاساسية ، في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر والاولى من القرن العشرين ، قبل ان يتخرج من جامعة اوكسفورد سنة ١٩١١ ويبدأ بالعمل في حفريات البلاد العربية . اذاً فهو ، حسب هذه التواريخ ، ابن العصر الفكتوري ، او بالاحرى ابن ذروة هذا العصر . والفكتورية (نسبة الى ملكة بريطانيا وامبراطوريتها الواسعة مدة اربعة وستين عاماً ، اي ما بين عامي ١٨٣٧ - ١٩٠١) هي عصر العظمة البريطانية ، عظمتها الحقيقية والباطلة والخيرة والشريرة ، عصر الفتوحات والسيطرة على القارات والمحيطات ، عصر النهضة والعياء والوفرة في الصناعة والعلم والادب والفن ، عصر الديمقراطية في الداخل والاستعباد في الخارج ، عصر الارساليات والاختراعات والمدارس . بين معالم ذلك العصر ، ونتائجه في الوقت نفسه ، الميل نحو المجموع (سمّ هذا المجموع شعباً او وطناً او رأياً عاماً) والتركيز عليه واعطاؤه السيادة والخضوع له بصورة والى حدّ لم يسبق لهما مثيل في بريطانيا . فالامبراطورية استستها سواعد الملايين وادمغتهم ، والفضل في الحفاظ عليها للملايين ، وليس لرجل واحد معين مثلما كان نابليون في فرنسا وبسمارك في المانيا . بنى مداميكها السياسيون (على اختلاف حزبيهم) والدبلوماسيون والجنود (والبحارة بوجه خاص) والتجار والمبشرون والرحالة والجغرافيون .

هي ، اذاً ، امبراطورية الشعب ومجد الشعب كله . والآلة التي اصبحت عماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية (والتي اسهم المخترعون والعباقرة الانكليز مع زملائهم من الاوربيين والامريكيين في استعمالها وتعميمها في تزعمها) قلبت المجتمع ومفاهيمه واعطت العامل ، مهما كان وضعياً ، دوره واهميته في بقاء المجتمع وعمله وتطوره ، وادخلته نطاق المسؤولية عن بلاده وامبراطوريتها ، حتى اصبحت الشعب ، بغالبية العاملة ، هو السيد وهو المسؤول . من هنا كانت

الديمقراطية الحديثة احدى بنات النهضة الصناعية ، وكانت ، بحد ذاتها ، حركة جماعية صرفة . الاهمية في المجتمع الديمقراطي للاغلبية ، اي للكثرة العددية ، اي للمجموع ، وليس لمواطن خاص ، مهما كان ذلك المواطن خللاً او مبدعاً . واتسع نطاق التعليم ، ولم تعد كليات ارسناتية مثل ايتون او هارو تحتكر المعرفة وتحصرها في ابناء الاثرياء . وبازدياد سبل الدراسة والاتصال ، عن طريق المعاهد والمعلمين والكتب والصحف والمطابع ، اصبحت الدراسة حركة جماعية تعطي لكل وتقول بحق الكل وتلغي عن النخبة او القلة قدسيتهما . كما ان النهضة الفكرية في البلاد رسخت هذا الاتجاه نحو الجماعية : حتى نظريات داروين نفسها (التي افنت للفرد تعدياته) فُسر بموجها تطور المجتمع في نشوئه وارتقائه بانه انما يتطور ككل ، ليفوز على مجتمع آخر متخلف عنه ككل .

ومثما اعطى هذا التفكير حجة لمجتمع اوربي متقدم ، كبريطانيا ، ان يستغل موارد مجتمع اسوي او افريقي متخلف (باعتبار ذلك العمل ، حسب النظرية الداروينية ، سنة الكون والطبيعة) ، استعمل دعاة الجماعية هذه الحجة ضد بقايا التفكير الفردي : فما دام المجتمع المتقدم لا يستطيع تحقيق انتصاراته وضمان بقائه الا بتعاون افراده وتكثفهم وتساويهم ، فان على الانانية الفردية ، التي هي في البدء الدافع الى النشو والارتقاء وسبب الصراع مع الغير ، ان تنازل عن بعض فرديتها وانانيتيها وان تسلّم بحق الجماعية لتحقيق انانية الجماعة كلها وفرديتها !

الفكتورية ، اذاً ، هي عصر الجماعية . ولكن لورنس كان نوعاً غريباً من الرجال . كان يؤمن بعكس ذلك تماما ، كان فرداً بكل ما في الكلمة من معنى ، كان هو عالم ذاته الخاص ، يجد سعاده في نفسه ولا يلجأ الى العالم ليتخلص من تعاسته . كان 'ينتج في عزله ويبدع في صومعة فكره وتنطفئ شعله قلبه ان تساقطت الاسوار التي تفصله عن غيره . حتى قلبه ، وهو جسر الانسان الى الآخرين رغماً عنه وعنهم ، سده لورنس منذ حدثه سداً محكما ليضمن انقطاعه عن العالم وليأمن شرّ حبّ خشي ان يربطه بآخر او بآخرين فيفقد فرديته وعزله . واحرق ، بذلك ، آخر مركب كان يمكنه ان يستعمله في الهرب من وحدته .

كان لورنس غريباً ، بالمعنى الفلسفي المعاصر لغربة الانسان وهو في وطنه وداره ومع اهله . رفض ان ينتمي لجماعة . لم يكن بريطانياً بقدر ما كان قد ولد ، فحسب ، في

بريطانيا من والدين بريطانيين (وكانا غير متزوجين) . ولم يكن فكتورياً ، ولا كان ابن عصر ما ، وان كان قد ولد في عصر معين بالطبع . هويته الورقية بريطانية ، اما هويته النفسية الاصيلة فانسانيسة . عصره الشكلي فكتوري (ثم تشرشلي) ، وعصره النفسي الاصيل ابدى . يعيش بلا زمان ولا مكان ، ولا يشعر بولاء لزمان او لمكان .

هذا هو مبدأ الصراع بين لورنس وبين عالمه الزماني والمكاني الذي فرض عليه . تأثر بالفكتورية مباشرة وغير مباشرة ، وعن قصد وعن جهل ، في آن واحد ، ولكنه في الوقت نفسه رفضها بارادته ولعنها بلسانه . وتأثر ببريطانيا واحبها في قلبه حبّ الابن لامه ، ولكنه خاصمها في عقله ورفض اعمالها . وانتقد كليهما وثار عليهما بارادته ، بقدر ما خضع لهما خضوعاً فطرياً اقوى من ارادته واختباراته ومفاهيمه النامية .

كان لا بدّ له من حلّ يتخذ به نفسه من هذا الصراع القاسي ويوفق بين ارادته ولا ارادته ، بين واقعه وامله ، بين حبه لبلده وحبه للانسانية ، التي قاست احياناً من تصرفات بلاده . اراد بكلام آخر ان يريح ضميره . وجد حلّ المعضلة في فكرة « الرسالة » ، او قل في خرافة الرسالة . وكانت رسالة مزدوجة : رسالة لبريطانيا في العالم (وخاصة الانحاء المتخلفة منه) ، ورسالة خاصة بلورنس ، لتأدية الرسالة الاولى وتحديدها ومراقبتها .

رسالة بريطانيا في الشرق (في البلاد العربية بشكل خاص ، فهي المكان الذي اهتم لورنس به دون غيره) هي ، حسبما فهمها لورنس وخطّطها ، ان تنقذ هذا الجزء من العالم من مشكلته السياسية الكبرى ، الاحتلال التركي والاطماع الفرنسية والالمانية والروسية ، وان تعطيه مكاناً في اسرة الامم المتحررة ليلعب دوراً في عالم الغد (عالم ما بعد اندثار الامبراطورية العثمانية) . فكرة رائعة : ولكن تحقيقها يعني خدمة العرب دون خدمة بريطانيا نفسها . لذلك اكمل لورنس خطته — الحلم ليضمن خدمة بريطانيا ايضاً : فاذا لم يكن العرب آنذاك ، برأيه ، اهلاً للاستقلال الكامل ، كان على بريطانيا الا تكتفي باخراج الاتراك ومنع الطامعين الاوربيين عن ارض العرب ، بل عليها ايضاً ان تشرف على تلك الارض ، سياسياً وعسكرياً ومالياً على الاقل ، لتأمين مصالحها ومصالح العرب في

آن واحد . كان هذا التفكير (الذي رفضه العرب بالطبع) مهد فكرة الانتداب التي تبنتها عصبة الأمم وقاسى العرب منها ربع قرن . وحجة التفكير المذكور ان هناك فرقاً بين استعمار واستعمار ، وان حكم بريطانيا للعرب إعمار وليس استعماراً ! كانت هذه الحجة وراء محاولة لورنس للتوفيق بين الاهداف البريطانية في البلاد العربية وبين الحركة القومية العربية ، واساسها ان لبريطانيا حقاً وللغرب حقاً ، وان على كل منهما مسؤولياته تجاه الآخر — وهي فكرة تبناها بعده عدد من السياسيين خلال تلك الحرب وفي اعقابها ، وعلى رأسهم السيرمارك سايكس الذي حاول ان يُدخل الحركة الصهيونية عنصراً ثالثاً في هذا الحلف (ولم يكن لورنس بعيداً ولا غريباً عن تلك المحاولة) .

اما رسالة لورنس الخاصة فكانت نوعاً من « النبوة » . يبدو زعمي هذا غريباً للوهلة الاولى : ولكن الذي يدرس تاريخ انكلترا في القرون الثلاثة الاخيرة يجده حافلاً بهذا النوع من « الانبياء » واصحاب « الرسالات » ، وخاصة بين المهتمين بشؤون الشرق



بريشة لولو عقل

منهم . كانت هذه القرون عصر نبؤات مثل عهود العبرانيين القديمة . ومن بعد نبؤات الليدي استر ستانوب ، التي سمت نفسها زوجة الله وجاءت الى فلسطين لتستقبل المسيح عند مجيئه الثاني وتدخل واياه القدس ، في مطلع القرن الماضي ، نشطت نبؤات مماثلة في اعقاب الثورة الفرنسية (بسبب تقلقل اوضاع اوربا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، وخوف الكثيرين من المتدينين ان يكون ذلك علامة الهية على قرب نهاية العالم ومجيء ملكوت الله) ، وظهر في الخمسين سنة ما بين تلك الثورة وتبويج فكتوريا العشرات من مدعي النبوة ، اصحاب الرسائل الخاصة الى بريطانيا والى بلاد الشرق بوجه خاص . واولهم واشهرهم رتشرد كوزنز الذي سمي نفسه ابن اخي الله . اما في العهد الفكتوري فقد اتجهت النبؤات وجهة انسانية ، واعتبر الجنرال غوردون الشهر نفسه مبعوثا الهيا خاصا لتحرير عبيد افريقيا . الا ان رسالة لورنس كانت من نوع آخر وفي اتجاه آخر : لم تكن نبؤة دينية لانه لم يكن متدينا (بمعنى انه لم يلتزم كنيسة معينة) ولان عصره كان اعقد من ان تنظلي عليه دعوات كالنبؤات السابقة . ملخص رسالته ان يحمي ذلك التحالف بين بريطانيا والعرب ، فيحرر الانكليز العرب ، بتفوق سلاحهم وسطوتهم الدولية ، من الاتراك والاوربيين ، وتحرر النفسية العربية بريطانيا ، تحرر هذه النفسية ذات الصفة الفردية المطلقة العقلية البريطانية من رواسب العهد الفكتوري .

يُشترط على صاحب الرسالة ان يكون صاحب حق بالوصاية . لذلك اعطى لورنس لبريطانيا حق الوصاية على الشرق ، مثلما منح نفسه حق الوصاية على الجماعتين . اي ان لورنس لم يكن رسولا انكليزيا بين العرب ، كما يظن الناس عادة ، بقدر ما كان رسولا لقضية معينة بين الانكليز والعرب على السواء . ثم انه لما ادرك فشله وانسحب ، كان النشل في بريطانيا وبلاد العرب معا ، وكان الانسحاب من الميدانين معا .

وكما كان الشاعر العربي يبالغ في وصف قوة خصمه ليرهن على شجاعته عند التغلب على ذلك الخصم ، كان لورنس (شأنه شأن العشرات من الرحالة في بلاد العرب) يبالغ في وصف غرابة الحياة في الشرق ومخاطرها ومصاعبها ومشاكلها ، من جهة ، وفي وصف جمالاتها وخيراتها ، من جهة اخرى . وذلك ليرسخ فكرة حاجة العرب الى بريطانيا

والى مبعوثيها والى مبعوثي العناية الالهية من شعبها ، وليرتر لاصحاب تلك « الرسائل » عملهم . وقد انبثقت عن هذا التصوير للشرق ، التصوير الخاطيء في معظم الاحيان والمغالى فيه في كل الاحيان ، صورة اخرى غير التي كان الشرق عليها في الحقيقة ، صورة له كما يتخيله زوآر وسياح ، وليس كما هو . فظهر الشرق وكأنه عالم ثان ، عالم آخر غير عالم الغرب . عند اكتشاف امريكا اصبح هناك جزءان من عالم واحد (قديم وجديد) ، اما عند اكتشاف الشرق (اكتشافا معنوياً ، بفضل الرحلات والتجارة والفتوحات بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر) فقد اصبح هناك عالمان مختلفان تماماً بل متناقضان ، عالمان لا يختلفان حالياً فحسب بل سيبقيان مختلفين ومتناقضين الى الابد حسب ظنّ دعاة تلك الفكرة (وليس كبلنغ الا واحدا منهم) .

وبغية الحصول على مادة يدعم بها تصويره الخاص للشرق ، غذّى لورنس (وزملاء له من قبله ومن بعده) خياله بالمشاهدات التي شاهدها في قطاع واحد فقط من الوطن العربي ، وهو القطاع الاكثر ابتعاداً عن الغرب وعن حياة الغرب وتقاليد من اي قطاع آخر في الوطن : اعني البادية والبدوة . لهذا السبب انحصرت غالبية اوصاف البلاد العربية في كتابات الرحالة الاوربيين في الصحراء وسكانها ، مهملّة المدن والارياف المتقدمة وحوض البحر الابيض المتوسط اهمالاً معظمه متعمد . ولكنه ليس السبب الوحيد : فهناك سبب آخر ، وربما كان اكثر اهمية عند لورنس ، وهو انه كان ناقماً على عقلية مجتمعه ، كما رأينا ، وكان غريباً عن ذلك المجتمع لانه وجد فيه اتجاهات نحو الفرد وتحويل الانسان الى رقم في كثرة عددية في نظام ديمقراطي والى مسار في آلة تسير سيراً جماعياً . ازعج هذا الاتجاه لورنس بقدر ما اعجبه ما وجدته في حياة البوادي العربية من نقيض لذلك : حيث لا يمحي فحسب كل اثر للجماعية ، بل حيث الفرد هو السيد بكل معنى الكلمة . لا قومية تُذيب المصالح الفردية في مصلحة عامة ؛ لا رأي عام يُرغم الاقلية على مماشاة الجمهور ؛ لا ديمقراطية عددية تنزع من شيخ القبيلة صلاحياته ؛ لا مساواة تُقرب الاطراف المتنافرة ولا ولاء يوحد المشاعر المتناثرة ؛ لا حكومة تسجن وتعاقب وتدبر الامور ؛ لا مصانع يسيطر العمال عليها وان كانوا مجرد اجراء يعيشون على رحمة صاحب العمل ؛ لا جيش ولا شرطة ولا مدارس تصهر العقول المتباينة وتخلق من المتناقضات قلباً واحداً .

عشق لورنس البادية : هي العالم الآخر ، هي نقيض العالم الغربي (العالم الذي يعرفه ويرفضه) ، هي ملجأ كل غريب مثله فر من وطنه المعقد الذي ورطته الحضارة بالف مشكلة . لم يكن ذلك غريبا عن لورنس : لقد سبقه آخرون من الغرباء امثاله ، لقد الهمت الصحراء العشرات من هؤلاء ، من مواطنيه في ايامه او قبل ايامه ، آخرهم الشاعر دوتي الذي استوحى من غرابيات البادية خير شعره (ذلك الشعر الذي اعجب لورنس به اعجابه بناظمه) . ما يؤخذ على لورنس هو انه اراد ان يصبح العرب كلهم عرب بادية . فقد بلغ تقديره لحياة البادية ونفوره من الحضارة حداً جعله يريد ان يعمم تلك الحياة على العالم ، مبتدئاً بالعرب طبعاً . اراد ان يُعيد عقارب الزمن ويجعل من حياة الصحراء المتخلفة حياة للشعب العربي باكماله . شعر ان عملاً كهذا جزء اساسي من مهمته ، من رسالته الخاصة الى العرب والعالم ، التي اختاره القدر وبعثه لتأديتها . العرب الذين اعتقد انه مبعوث للتوفيق بينهم وبين المصالح الانكليزية هم عرب الصحراء وعرب المدن الذين يخضعون لعرب الصحراء ، اي حيث لا مضانغ ولا مدارس ولا حكومات ولا انظمة ولا ديمقراطية حديثة ، بل فردية تتحكم وولاءات ضيقة تتناحر وثار وجهل ومرض وفقير . لهذا ، مثلاً ، هاجم لورنس الحياة في لبنان ومصر بقدر ما مدح البادية في كتاباته عن العرب ، قبل الحرب ؛ ولهذا زعم عرب الصحراء على الثورة العربية مع انها كانت حركة مدنية قومية ، خلال الحرب ؛ ورفض ان يتعاون في تلك الثورة مع ممثلي المدن ، من مصريين وسوريين ؛ ولهذا ، بعد الحرب ، حرص ان يفرض على معظم الكيانات العربية في اسيا حكماً من الصحراء .

من الخطأ اذاً الا ننظر الى لورنس الا من زاوية مدى ولائه لانكلترا او صداقته للعرب . فهو مع انكلترا يمثلها هو ضد الحياة فيها ومفاهيمها ، وهو مع البداوة بقدر ما هو ضد الحركات القومية العربية . السؤال الالهم بنظري ، وربما الافيد والاصح ايضاً ، هو مدى انسجام الرجل مع نفسه . هل كان اميناً للرسالة التي آمن انه مبعوث لها (تخليص بريطانيا من رواسب فكتوريتهما ، وتخليص العرب من آثار الغرب ، وتحرير العرب من الاتراك وندب بريطانيا عليهم) ؟ بالرغم من غرابيات لورنس وتناقضاته العامة ،

استطيع ان اراه منسجماً مع نفسه ومع رسالته الى حد بعيد ، وعلى الاقل اكثر مما كان مخلصاً للعرب والانكليز بالشكل الظاهري لكلمة اخلاص . والدليل المختصر على ذلك انه لما رأى رسالته اخذت تفشل ، انسحب . رآها تفشل ، مع انه نجح في وضع دعائمها الظاهرية ، فدخل القدس فاتحاً الى جانب النبي ، وجلس قرب مندوب العرب الى مائدة مؤتمر الصلح ، وشاهد بلاده تخرج من الحرب منتصرة وسيدة للعالم . الا انه رأى في الوقت نفسه بوادر حركة عربية تثور على الانتدابات والتقسيمات ، وعلى البداوة والتخلف ، وعلى ما يحمله الانتداب والبداوة من معان ونتائج ، بمثل ما ثارت على الاتراك من قبل . ورأى مجتمعاً بريطانيا يغالي بعد الحرب في سيره نحو الجماعة ، ويستمر في اخضاع الفرد - وقد تضاعف حجم هذه الجماعة بمجرد اعطاء النساء حق التصويت في الانتخابات .

ادرك لورنس فشله في مدى سنوات قليلة من انتهاء الحرب . فتخلى عن رسالته الخاصة ، وهرب من ميدان النبوة . والنبوة هي المسؤولية ، لذلك كان هربه منها هرباً من المسؤولية . وحينما اختار الجيش مأوى له ، فهو انما اختار لنفسه رتبة نفر فقط (مع انه كان يستطيع ان يحصل على اعلى الرتب) . اراد ان يصبح بلا مسؤولية قط ، اراد ان يصبح عكس ما كان في الماضي ، اراد ان يتحول الى صفر . فالجيش هو المكان الذي يتساوى الجميع فيه وتذوب فيه الفرديات وتتلاشى . ذلك ان لورنس عرف ، من قبل ، بجينه نفسياً بالرغم من شجاعته الجسدية . رأى نفسه ، بعد بطولاته في الحرب ، اجبن من ان يواجه فشل آماله في العرب وفي الانكليز معاً ، فهرب من كليهما . هرب من دمشق بعد يوم واحد من فتحها (ذلك الفتح الذي اعلن انتصار الثورة العربية على الاتراك) ورفض بعد تلك الحادثة بثلاث سنوات ان يتصل بالعرب او ان يعنى بشؤونهم او ان يتعاطى اياً من قضاياهم . وهرب من المجتمع البريطاني المعقد بان انضم الى الجيش ولم يعاشر فيه الا الجنود الانفار ، وهم ابسط السكان . بل انه حاول ان يهرب من نفسه ، من ماضيه وذكرياته ، ومن رسالته ونبوته ، وابدل اسمه ومسكنه ومطالعته . وصرف ثلاث عشرة سنة يقاوم اغراءات النبوة : يرفض اية مسؤولية ، عسكرية كانت ام سياسية ، ويعتزل الناس ، ويغرق في المطالعة بلا تأمل وفي العمل الميكانيكي بلا تفكير ، ليبعد عنه شبح النبوة قدر الامكان . ولكنه ظل غريباً مثلما كان من قبل . فضل ان يظل غريباً بحاجة الى نبي يشيد له الوطن المرجو ، من ان يكون هو ذلك النبي الذي يهب لنجدة الغرباء من امثاله .